"الأقباط عنصر أساسى فى الأمة المص رية، لايمكن أن تقوم دراسة صحيحة عن مصر وشعبها دون د راسة للأقباط تا ريخا ولغة وجنسا وأدبا وفنا "

لمثلث الرحمات المتنيح الأنبا يؤانس أسقف الغربية

ومساهمة منا فى نشر الوعى بالتاريخ القبطى فأننا نقتبس من كتاب

حضارة مصر فـــى العصر القبطى

تأليف مراد كامل

خامسا : الحياة الإجتماعية
(أ) مركز المرأة فى الحياة المصرية

كانت المرأة فى مصر – منذ أقدم العصور – مصدر الوحى ومبعث الجهاد الروحى . حتى لقد جعلوا الآلهة معات رمز العدالة والبر والحق . وقد سجل لنا التاريخ أسماء الآلهات والملكات والكاهنات ، ولكن العظمة الروحية التى امتازت بها المرأة فى مصر لا ترتكز على هؤلاء وحدهن – إذ هن يؤلفن أقلية – بل ترتكز فوق ذلك على أن المرأة كانت مسئولة عن أولادها أمام معلميهم ، كما كانت مسئولة عن والديها فى شيخوختهما . فهى لم تكن مصدر الوحى فقط بل كانت حاملة الشعلة أيضاً .

واعتنق المصريون المسيحية فظلت المرأة مصدر الوحى وظلت حاملة الشعلة ، فقد روضت نفسها على السمو بأخلاقها وفضائلها حتى صارت نموذجاً للوثنيين وقدوة مثلى اجتذبت هؤلاء الوثنيين إلى دين المسيح بطريقة معيشتها ، لأنها كرست حياتها للخدمة فى خشوع ، واضعة نصب عينيها كلمة بولس " انتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم " . ومن ثم عاشت باستقامة وطهارة فانتزعت إحترام الجميع انتزاعاً . وكانت التعاليم التى تسلمها التلاميذ من السيد المسيح عن كرامة الشخصية الإنسانية تتردد على مسامع الشعب كل يوم إذ كان إكليمنضس الإسكندرى يعلن عظمة الزواج المسيحى فى محاضراته بالمدرسة السكندرية . وكان يبين لسامعيه كرامة هذه الزواج الذى جعلت منه الكنيسة سراً مقدساً ورباطاً روحياً يعقده الكاهن بمقتضى ما ناله من سلطان تسلمه من الرسل أنفسهم ، ومن أن السيد المسيح بارك العرس فى قانا الجليل ، وكان الوثنيون يحتقرون الطهر والعفاف ويتباهون بما هم فيه من فساد . والعجيب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يصغون إلى محاضرات إكليمنضس وغيره من معلمى الكنيسة عن الواجبات النبيلة المفروضة على الزوج وزوجته ، وعن قدسية الزواج – كانوا يصغون

بانتباه تام لأنه كان لا يزال بهم حتى يصعد بنفوسهم إلى ذروة الحكمة التى بلغها . فإذا ما قارن المستمعون إلى محاضرات اكلمنيضس بين تعاليمه وبين الحياة التى يحياها المسيحيون وجدوها صورة صادقة للإيمان بقدسية الزواج . لأن الزوجة المسيحية كانت مثالاً حياً للكرامة الإنسانية التى تترفع عن النزول إلى حمأة الرذيلة . وحين أبصر الوثنيون هذا التقديس للزواج وهذا التمسك التام بالعفاف ، تحولوا تدريجاً نحو هذا الدين الذى ارتفع بالصلة الزوجية إلى مرتبة الروحيات .

ومع أن التاريخ يذكر سير النساء اللواتى بلغن مكانة روحية سامية ، إلا أن هناك آلافاً من الجنديات المجهولات اللواتى عرفن معنى الفضائل المسيحية وعشن بموجبها ، ومن أرق الأمثلة عن هاته النسوة المجهولات قصة يرويها الأنبا مكارى الكبير بنفسه ، فإنه – على الرغم من حياة النسك والرهبنة التى كان يحياها – كان يؤمن بأن كل من يفعل إرادة الله ينال رضاه . فقد شاء ذات يوم أن يعرف درجة القداسة التى وصل إليها ، فرأى فى رؤى الليل ملاكاً ينبئه بأنه بلغ مرتبة سيدتين فى بلدة معينة . فلما أصبح الصباح ترك صومعته قاصداً البلدة التى أشار إليها الملاك . ولما وصل إلى بيت السيدتين استقبلتاه بالتكريم والإجلال ثم سألهما عن كيفية معيشتهما ليعرف السبب فى ما نالنا من تقدير ، فأعلمتاه بأنهما يسكنان معاً لأنهما متزوجتان من أخوين . وأنهما اتفقتا منذ اليوم الأول على أن لا تتفوه إحداهما بكلمة تجرح الآخرى . وإذا أحست واحدة منهما بأنها أساءت بكلمة إلى الأخرى اعتذرت لها فى الحال دون أن تدع الشمس تغيب قبل أن تكون قد استسمحت من أساءت إليها وصفت الحساب مع ضميرها . وحين سمع الأنبا مكارى هذا الكلام هتف قائلاً " حقاً أنه لا فرق بين الراهبة والمتزوجة ، وبين الناسك والرجل الذى يعيش فى العالم . فقد وهب الله تعالى نسمة الحياة للجميع ولم يطالبهم إلا بصدق نواياهم " .

ولقد أدركت المرأة المصرية قدسية الأمومة كما أدركت قدسية الزواج تماماً . فلم يعد للأم المسيحية شاغل إلا العناية بأولادها والسهر على تربيتهم تربية تتفق والكمال المسيحى . وقد دفعها هذا الإدراك إلى التفانى والمحبة . ولم تكن أمومتها منصبة على أولادها الذين ولدتهم فقط بل اتسعت لتشمل الأولاد المحتاجين إلى العناية فى شتى صورها . فلقد استشهد أبو أوريجانوس فى الاضطهادات التى أثارها سبتيموس ساويرس فى أواخر القرن الثانى للمسيحية . وكان أوريجانوس لا يزال يافعاً مع كونه أكبر إخوته السبعة ، ولم يكتف الإمبراطور الرومانى الظلوم بأنه أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وعائلتهم بل صادر أموالهم أيضاً . فاعتنت بهم سيدة غنية من سيدات الإسكندرية لم يذكر التاريخ اسمها ، وسهرت على تربية هؤلاء الأطفال اليتامى ، وبذلك هيأت الفرصة لأوريجانوس ليكون من أبرز المعلمين الذين أنجبتهم الكنيسة المصرية ومن أعلام الفكرى المصرى الناضج .

ولقد كان من أثر تمسك المرأة بكرامتها وحفظها لطهرها وإدراكها الصحيح لمسئولياتها أن وثق بها آباء الكنيسة ومعلموها . فنجد أن أوريجانوس ناظر مدرسة الإسكندرية حين سجل الكتاب المقدس فى لهجات مختلفة ، استخدم سبع شابات يجدن

الخط كى يكتبن له هذا الكتاب فى صيغته النهائية بعد التنقيح والتعديل . ولما بدأت الاضطهادات المروعة التى شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت المرأة قوة راسخة شدت من عزيمة الرجال ، إذ كانت تقف إلى جانبهم وهم يسامون أنواع العذاب تشجعهم على احتمال ما يلاقون من هول . وبعد ذلك تتلقى هى ما تلقاه الرجال من صنوف التنكيل فى سكينة وثبات .

وكان يحدث أحياناً أن يجبن الرجل فتكون المرأة سبباً فى أن يستعيد شجاعته . وأبرز مثل لذلك السيدة دميانة التى كانت الإبنة الوحيدة لمرقس والى البرلس . وكانت قد طلبت إليه أن يبنى لها قصراً تقيم فيه بمنأى عن العالم لتخلو فيه إلى ربها وتقضى عمرها فى الزهد والتقشف ، وفى الصوم والصلاة ، وفى التأمل والعبادة . فأجابها أبوها إلى رغبتها وبنى لها قصراً فى المنطقة المعروفة الآن بالبرارى بالقرب من بلقاس ، حيث عاشت فيه فى أمن وسلام مع أربعين عذراء نذرن العفة والطاعة مثلها . وعشن جميعاً فى هدوء وطمأنينة . إلا أن ديوقلديانوس الإمبراطور الرومانى أثارها حرباً شعواء على المسيحيين فجرعهم صنوف التعذيب والتنكيل . وحين أعلن هذا الإمبراطور الطاغية اضطهاده طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه إلى الهيكل ويرفعوا القرابين للآلهة . فجبن مرقس أبو دميانة وخشى على مركزه وجاهه ، وذهب مع الإمبراطور كما طلب .

فلما سمعت دميانة بما كان من خوف أبيها ذهبت لملاقاته وأعربت له عن حزنها العميق لما أبداه من خوف وتراجع . فلم يسع مرقس إزاء كلمات ابنته إلا أن يعود إلى الإمبراطور ويعلن له ندمه عما فرط منه من تمجيد للآلهة ويقرر له أنه مسيحى ، فأمر الإمبراطور بقطع رأسه بالسيف . ثم أرسل جنده إلى حيث تعيش دميانة ومعها الأربعون عذراء ، فنكلوا بهن تنكيلاً . وتحملت دميانة وصديقاتها كل صنوف العذاب بصبر عجيب . وكان أهل القرية قد خرجوا جميعاً ليشاهدوا ما سيفعله الجند بالعذارى . فلما رأوا ثباتهن وشجاعتهن أعلنوا مسيحيتهم ، فأمر الضابط الرومانى بقتلهم جميعاً كما أمر بقتل السيدة دميانة والعذارى الأربعين . وهكذا كانت بسالة السيدة دميانة سبباً فى إذكاء نار الحمية والإيمان الثابت فى قلوب هؤلاء جميعاً .

ثم انتهت الاضطهادات ، وحل الأمن والطمأنينة . فعادت المرأة إلى مزاولة أعمالها العادية . فالزوجة أنصرفت إلى بيتها ، والأم عادت إلى تربية أولادها . وإلى جانب الزوجة والأم كانت توجد من وهبت حياتها لخدمة الله والناس ، واختارت أن تكون راهبة أو شماسة (أو كليهما فى آن واحد) . ولم تكن حياة العبادة منصبة على العبادة والتأمل فقط بل شملت العمل اليدوى والعقلى والخدمة الاجتماعية أيضاً .

أما درجة الشماسية فكانت تستلزم ممن ينالها أن يتفقد المرضى والمسجونين والغرباء والمعوزين ، كما كان عليه أن يزور العائلات ويقدم تقريراً عن أعماله للكاهن أولاً بأول . فكانت الشماسة مسئولة عن الحى المنوط بها خدمته ، ترعى سكانه وتعمل جهدها على تخفيف آلامهم وعلى إدخال الطمأنينة إلى نفوسهم ، وتحرص على

مصاحبتهم إلى الكنيسة كى ينالوا حظهم من الرعاية الروحية . بل لقد كان الشماس (أو الشماسة) يوصف بأنه (عينا الأسقف وأذناه) لأهمية عمله .

وأعظم مثل بين الشماسات ، تلك الشماسة التى لم يذكر التاريخ اسمها والتى اختبأ عندها اثناسيوس الرسولى (البابا الإسكندرى العشرون) . ذلك ان الأريوسيين كانوا يطاردونه بغية قتله . فهجموا ذات ليلة على الكنيسة التى كان يصلى فيها . ووقف الشعب تلك الليلة فى وجه الأريوسيين . ثم حمله بعض الرهبان خارج الكنيسة . فلما وجد نفسه حراً طليقاً أخذ يتمشى فى شوارع المدينة وهو يفكر . وكان ظلام الليل ستاراً يغطيه عن أعين مطارديه ، وفيما هو يفكر ويصلى ألهمه روح الله أن يلجأ إلى بيت شماسة لم تتجاوز العشرين من عمرها . ولما قرع الباب فتحته بنفسها ففرحت فرحاً عظيماً حين رأته ، ومكث القديس العظيم فى بيتها حولى ست سنوات خدمته خلالها بأمانه لا تعرف الكلل . فكانت تأتى له بالمخطوطات من الكنيسة ، وتحمل إلى الشعب رسائله الفصيحة وخطاباته التى كان يكتبها فى مختلف المناسبات مما أثار دهشة أصحابه وأعدائه معاً .

فأصحابه كانوا يتلقون تلك الرسائل بغبطة ولهفة وهم يتساءلون فى شىء من الخوف : ترى أين البابا العظيم ؟ أما خصومه فكانوا يتميزون غيظاً لعجزهم عن معرفة مقره والفتك به . وضاعت جهود الأصدقاء والأعداء فى البحث عنه . فلما مات الإمبراطور قسطنس الثانى الأريوسى – وكان المؤمنون مجتمعين ساعتئذ فى الكنيسة للصلاة – إذا بأثناسيوس الرسولى واقف بينهم فجأة . فلاقوه بفرح لا يوصف ثم سألوه أين كان مختبئاً فأجابهم " لم أختبىء عند أحدكم لئلا يسألكم الحكام عن مكانى فتكذبون حرصاً على حياتى ، بل لقد أختبأت عند تلك التى هى فوق الشبهات مع كونها شابة جميلة . فكسبت بذلك حياتى وحياتكم " .

هذا المثل الرائع يعطينا صورة عن خدمات الشماسات ومدى جهودهن الدينية والاجتماعية ، وإلى جانبهن وقفت الراهبات اللواتى كرسن حياتهن للخدمة والعبادة فى تفان عجيب . ومن الأمثلة البديعة لخدمة الراهبات الروحية والأجتماعية معاً ذلك المثل الذى قدمته العذراء " يبامون " حين فضت نزاعاً بين أهل قريتين بسبب مياه النيل – إذ كان أهالى كل قرية يريدون رى أراضيهم قبل الآخرين .

وثمة خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت المرأة تؤديها . هذه الخدمة هى التطبيب . فقد كانت بعض النسوة يعرفن ما لبعض الأعشاب من فوائد صحية ويركبن منها العقاقير ويصفنها للمرضى . وكانت هذه الخدمة توهب مجاناً فى معظم الأحيان . ولا تزال فى بعض بلاد الصعيد سيدات يؤدينها . وهؤلاء السيدات لم يذهبن إلى مدارس ولم يتلقين العلم على أساتذة . ومن المعروف أن مثل هذه المعرفة جاءتهن بالتسليم – أى أن المرأة التى لديها هذه المعرفة كانت تختار شابة تتوسم فيها الرغبة والمقدرة على تأدية رسالة التطبيب فتسلمها معرفتها بالممارسة . ولما كانت هاته النسوة يعشن فى بيئة ساذجة ، يندر فيها من يعرف القراءة والكتابة ، كما يندر أن يوجد فيها من يهمه أن

يكتب سيرة المرأة العاملة ، فأنه لا توجد أدلة مخطوطة ،وإنما الأدلة قائمة على قيد الحياة نفسها وعلى التقليد الذى سارت عليه مصر منذ أقدم العصور .